
قصة قصيرة
أولاد حارتنا
٢٠٢٠
محمد
حياه

قصة قصيرة

أولاد حارتنا

٢٠٢٠

بقلم / محمد حياه

منذ زمنٍ بعيد وحارتنا لم تتخلى عن ســـماتها، مهما تقلبت الوجوه وغدر الزمان بها، ظلت كما هي ســماتٌ لها جذور تشبثت ببعض وتغلغلت ببواطن العروق فيما بينها، فكيف بعد كل هذا أن يؤثر عليها مارد إســـمه الزمن، فهو كان لها كأدوات الزينة والتجميل لعجوز طالت شـيخوختها، سـوف تتفاجئون إذ أخبرتكم إنها لم تمر بمراحـل العمر المعتـادة من النشـــأ والطفولـة والمراهقة والشباب والعقل أو مرت بهم في عجالة فهي عجوز مسنة منذ قرون، فمهما طال الزمن وأضاف ما أضاف ستبقى شقوق العجز تحتل ملامح حارتنا وينير الظلام وجهها القبيح بكل إشراقة مزيفة.

رغم مرور زمن ليس بقليل على ذوبان أسطورة الجبلاوي في ضباب العهد السابق وما حل بأولاده، إلا

أن مهنة الفتوة لم تكن مهنة تلتصق بزمن ما وتنتهي حتى تزول معه، إن مهنة الفتوة لحارتنا كالرحم للجنين، فسلالة الجبلاوي استمرت ومهنة الفتوة ظلت تراثًا يتنقل بين سلالته حتى عهدنا هذا، وزادت أحفاده كثيرًا وإنتشرت دماءه بين منازل حارتنا كسِرب نمل يهرب من لهب البركان، فأصبح في كل بيت حفيد للجبلاوي، وسوف أقص عليكم دون ترتيب نبذة عن أشهر أحفاده، الذين يعيشون بيننا ويتحكمون في مصيرنا ومصير حارتنا.

ونبدأ بأولهم وهو "أمجد" وسبب البداية به لأنه الأب الشرعي لتطور مهنة الفتوة في هذا العصر، والصورة الأولى والأصدق لها بعد ما تم تطور مظهرها كثيرًا، تكاد تشعر إنها ديانته الأصلية التي يخفيها عن الجميع، فتوة بصورته القديمة، البنيان القوي الصلب، والعينين التي ولدت على مخالب صقر العِقاب، والقلب الذي توفى قبل ولادته، الشارب الأسود الكثيف كغصون شجرة جافة تهاب الصقور أن تقف عليها فتصاب بالجروحٍ، تفوق على فرعون فيما أصابه من جنون العظمة والسلطة، نَصّب نفسه إلهًا ونحن عبيد عنده، لا نمر من محرابه حتى نقدم القرابين أو كمان يفضلها هو

الإتاوة، فهو فتوة لا يعيره سواها، فهي بالنسبة له الشهيق الذي يحتاجه لكي يحيى، فيزفر علينا بكل غضبٍ وتكبر وتسلط وغرور وبكل ما أوتي من قوة لكي يمنحنا حق نتخيل إنه ليس لنا، أو إنه يمنحنا نعمة يجب أن نصلي له فهذا بالفعل ما يظنه، فحُكم النَفس على النَفس هو شرعه الوحيد، هو القانون النافذ والمُنفذ أمام مَن يطلب منه شيئًا، فهو مقتنعٌ بمبدأ واحد دائمًا يلفظه "أن بدون الإتاوة لا تستحق أن تعيش في تلك الحارة."

ثانيهم هو الفتوة "ممدوح" التي كانت لطبيعة عمله التي تبتل أطرافها وتذوب من قربها الكبير من البحر، السبب وراء أن يمتهن مهنة الفتوة بجدارة وحقارة وثقة نافرة، يتميز بعينان غاضبتان تستظلان بحاجبان كثيفان بالشعر، وجبهة عريضة سمراء ناتجة عن زواجه العرفي بأشعة الشمس التي يقف أسفلها منذ بزوغ أشعتها الحارة حتى تتستر بغطاء الليل، نتقدم منه طالبين أن يعطف علينا برحمة عفت عن الطهارة منذ زمن، ويسمح لسفينتنا الأرملة أن تتكأ على جزيرته وتلد حملها، فينظر لنا ويحدق في ملامحنا وفي راحة أيدينا بالأخص، فإذا وجدها خاوية من الإتاوة التي يريدها، حينها يزداد غضبه وتضيق عيناه أكثر وينقلب لطوفان

من اللعنات، طوفان نغرق فيه حتى العنان الأعلى، ويطعن في نَسب ما لفظه رحم السيفنة، بكل بذاءة وثقة وكأنه والده الشرعي، فنتضرع له خافضين الرؤوس حتى الحد الذي يقبله، وتسبقنا صناديق القرابين أو الحقائب الجلدية السوداء أيهما أقرب وأثمن، الأهم هو شيئًا واحد لا يريد أن يرى سواه "أن الإتاوة تنير راحة يدينا ونحن في حضرته."

ونأتي لثالث حفيد ويدعى الفتوة "قنديل" وهو بالفعل قنديل يضيء حارتنا باللون الأحمر من كثرة الدماء عليه، قنديل يتزين بالدماء التي تتساقط من على جوانبه الأربعة، فتوة بصورة مغايرة عما قبله في كل شيء، لا يتحدث كثيرًا من فرط الشحوم على رقبته، التي تخنق أحباله الصوتية بقبضة من الدهون، فتخرج من فمه أشباه حروف تتطاير وسط الرزاز، هذا إذا نولت شرف الحديث معه للأسف، لم يُخلق وصف كروية الشكل سوى لكوكب الأرض وبطنه، يكاد يقدر أن يمشي برغم استغاثة أقدامه منذ سنين طالبة منه الرحمة والبتر ولكنه لا يجيبها، يفترس الطعام كأسد في عرينه برغم إنه ينافس الفيل في سمانته، يذبح الفرائس بحوافر أقدامه، لا يتسنى أن تأخذ قطعة من أمامه إلا أن تدفع إتاوته

ويقبلها ببطنٌ رحبة، وما أن تمد أطراف يدك ظنًا أنك الأن تستحق أن تأخذ تلك القطعة الحمراء من الفريسة، إذ تتفاجئ به وهو يُخرج فُتات لحم من بين أسنانه ويغرسه في بطن يدك، مشيرًا لك بعينين تستحقر رؤيتك أن تضم أصابعك على ما منحك إياه وتنصرف دون أن تنظر خلفك أو تتفوه بكلمة، حتى يكمل وجبته بنَهَم دون أن تقاسمه عينيك القذرة فتلوث شهيته، ويجب أن تعلم جيدًا وأنت تغادر عرينه "أن بدون الإتاوة قد تصبح فريسته القادمة وينير بدمائك قنديله المعلق في أول الحارة."

والرابع بينهم هو الفتوة "محمود" وهو النقيد المثالي لقنديل في شئين، أولهما لون ثيابه التي لا تراها إلا وتذكر الليل وعظيم سواده، وثانيهما فهو بالكاد يصل لنصف ربع وزن قنديل، لكنه يمتاز عنه بلسانه الذي عاشر به البذاءة فأنجب سلالة من أقذر الألفاظ التي تغتصب الحياء لا أن تخدشه فقط، ما أن تدنو من مجلسه إلا وتُقسم أن نعمة السمع هي عقاب من الله، فتريد أن تسد أذنيك بأصابع أقدامك ولن تكفي، ولكنك مجبر أن تتقدم وتقترب أكثر وتطلب منه أن ينظر لحمارتك وأقدامها المعطوبة، حينها سوف تنصت لأشد أنواع

الزلازل الذي يحتضن توابعه بكل قوة، ويعلن مركز الأرصاد بداخل عقلك أن مصدر هذا الزلزال هو أنف محمود، فهذا رده عما جرأت أنت وطلبته بكل وقاحة مهذبة، فكيف لم تُسمعه صوت خشخشة إتاوتك في يدك، حينها لن يتغير كثيرًا في رد فعله، لكن من الممكن حينها ان تنصت لزلزال أقل حدة لا يُحدث إصابات كثيرة، وما أن يأخذ الإتاوة منك فيتفحصها كقردة تنظف أبنائها، وعندما يجدها جيدة نوعًا ما فيبتسم قليلًا لتنير أمامك أقذر تسعة أسنان قد تراه في حياتك، ثم يميل برأسه قليلًا نحو حمارتك وهو يكاد يلمحها، فيجيبك وهو يدفن إتاوتك في كهوف لباسه قائلًا "حمارتك بها قدمان معطوبتان أبحث عن حمارة أخرى نافقة وخذهما منها" ويتركك ضاحكًا كنعيق الغراب في موسم التزواج، وأنت تحتضن حمارتك تحاول أن تُنسيها ما أنصتت له من إهانة مجبورة عليها بسببك، "لقد أصبحت مرغمًا أن تدفع كل مرة تلك الإتاوة حتى لا يتفشى العطب في أقدامك أنت الأخر مثل حمارتك."

لم يكن الحفيد الخامس "ياسين" مثل من سبقوه من الفتوات، فلم يصل منهم لما وصل به من علم، تنخدع بمظهره الثعلبي وعينيه الصافية وفصاحة لسانه وبشرته

البيضاء الناعمة، وأنيابه التي يبرز بريقها من أسفل شفاهه، فهو فتوة من نوع أخر، فتوة يجبرك أن تأتي لساحته وتحت أجراسه، تدنو منه متوجسًا، ثم تنحني راكعًا لتقبل أقدامه وتلحس نعله، وتنتصب وتستقيم ببطئ راسمًا إبتسامة الرضا، ثم تلتفت للخلف وتمد يدك وتجذب ابنتك التي تندثر في طرف جلبابك حتى تتقدم أمامك وتدفعها بقوة نحوه، ثم تتقهقر على أطراف أصابعك خارجًا من ساحته النجسة، فلقد أجبرك أن تُقدم ابنتك له يفعل بها ما يحلو له، تلك هي إتاوته التي ينتظرها منك حتى يتغذى عليهم بداية بالرأس ثم القلب ثم يمتص ما يريده من دمها الحيوي، ولا يخلو هذا من نهش لحمها بضراوة إذا أراد ذلك، ثم تركها لك فتأتي لتستلم ما تبقى منها في نهار اليوم الثاني، وتحملها بين ذراعيك وأنت سعيد ترفع شعار الرضا والقبول والخنوع فلقد حصلت منه على سَك العبودية الذهبي الذي تركه لك بجوار جثة ابنتك، "الإتاوة تدفعها مقابل رضاك على هَتك شرف عقل أبناءك."

الحفيد السادس "مرسي" كان وضعه غريب بعض الشيء، فلقد كان يكتن في أطراف الحارة، يتخذ من القمامة منزل له، غير معروف كيف استطاع أن يتعايش

مع كل تلك القذارة والكلاب الضالة، لكن كانت له سلطة علينا جميعًا بالحارة، يجب أن نذهب له مجبرين بسبب ألام الرأس المزمنة التي لا تنتهي، كأنها مطرقة تتراقص داخل رأسك دون هوادة، ونحن في طريقنا له نضرب رأسنا في كل حائط أو جدار نَمُر بجانبه من شدة الألم، ثم نعبر من وسط الكلاب الضالة وعواءها المستمر بأعجوبة، حتى ندخل منزله ونحن نريد أن نقطع أنفنا حتى لا نستنشق تلك الروائح النتنة المتعانقة بين بعضها البعض، حينها نراه جالسًا على بقايا حصان ميت، أسمر الوجه ولحيته طويلة متسخة، وعينيه شديدة الإحمرار، ينظر لنا باحتقار وغضب، ويرتدي جلباب قد فصله من كفن والده الذي سرقه من قبره بعد وفاته بسنتين، نقترب منه في رهبة وتقزز ونشير له بالألم الشديد الذي يجتاح رأسنا، وأعلن إحتلاله لثلاث أرباعها دون أي مقاومة منا، حينها يبدأ بأن يتمتم بكلمات غريبة غير مفهومة، ثم يزداد دخان الجيفة التي يحرقها أمامه، ثم يطلب إتاوته قائلًا "أريد ريشة من جناح ديكٍ أبرص، وشعرة من فرو دبٍ قطبي أعرج، ومقدار كوبًا من الدماء لجندي مسلم حارب الصليبين، وصفار بيضة لتمساحٌ أرمل" ثم يصيح فينا ألا نأتي له مرة أخرى إلا إذا أحضرنا كل ما طلبه دون استثناء شيء، فنخرج حاملين أثقال من الألام فوق رأسنا تتضاعفت بعد

زيارته تلك، نلهس خلف ما طلبه كثيرًا، والنتيجة إننا لا نعثر على شيء ولا ينتهي الألم، "الإتاوة قرابين تُقدم لمَرَدة من الأنس."

وللحفيد السابع الفتوة الذي يدعى "نعيم" سر في إسمه، لأنه بالفعل يُعرّف نفسه للناس بإنه الفتوة الذي يحرس الجنة في الدنيا، حتى بلباسه الأبيض الفضفاض لباسٌ خادع، زيّ ملائكي مسروق من خزانة الجنة، ولكنه في الحقيقة سفير عزرائيل على الأرض، يخدمه بكل أمانة وإخلاص، يتفانى في عمله كأنه عمله الأخير، تدخل قصره الذي يشع بياضًا في كل جوانبه، وكأنه قطعة ثلج قد تم نحتها خصيصًا له، تتقدم بأقدامًا تتراقص من الرعشة وأنت تحتضن ذراعيك خوفًا، يستمر إبهارك المزيف بهذا القصر حتى تصل لغرفته، وتجده أمامك طويل البنيان، ينظر لك بعيون واسعة كالبومة يتفحصك حتى تقترب منه، وعلى حين غفلة وبدون أي مقدمات يمسك يدك ويقيدها بسلاسل من الحديد وبالمثل يفعل بقدميك، حتى رقبتك لم تسلم منه فلقد قيدها بطوق مسلسل بالحديد، ثم يدنو منك وينظر مباشرة في عينيك، وأنت تقول له في توسل وتلعثم شديد "أريد جرعتي إنني أموت"، فيبتسم وهو يسألك "وهل الإتاوة مثل المرة

السابقة؟" فتومأ برأسك إيجابًا، فيمد يده للخلف وتعود مرفوعة لأعلى وهي تقبض على ساطور حاد النصل يهوى على ذراعك فينقسم نصفين، نصف بجسدك ونصف بجوار قدمه فيركلها بعيدًا، ينظر لذراعك المبتورة سابقًا وذراعك المبتورة الأن وتعلو ضحكاته، وهو يغرس في قدميك شيء مدبب صغير تشعر بعدها بالنشوة والرضا المزيف، وتخرج من قصره بعد أن يحل قيودك، ولقد حدد لك موعد لبتر قدمك اليمنى، فتخرج منتشي وأنت على يقين بشيءٍ واحد "أن الإتاوة دواء لعين لفتوة سادي."

أما ثامن حفيد فهو أنا الفتوة الجديد، فتوة هذا العصر، الذي يستطيع أن يكوّن جيوشًا خلفه تدافع بضراوة عن وهم صنعته أنا، أنا الفتوة الذي يمتص شغف عقلك وغريزتك الإنسانية ظنًا منك أني ماحي الأمية وقمر العلم في ظلام الجهل، أو هذا ما أوهمتك به بكل سهولة ولا أنكر غباءك الذي ساعدني وألهمني الكثير لأصل لما وصلت له، فلقد جعلتك تلهس خلف عنوان مثير ينطوي على إيحاءات جنسية ووصف مشاهد تثير عقلك السفلي، أجعلك تسبقني في نشر الجهل بكل حماس وغباء وثقة تدافع عن السم الذي قمت بدسه لك بين

السطور التي مضغت أوراقها بنَهَم وجوع، ثم تقف على المنابر تخطب بأجزاء من عبثي على إنه العلم الصحيح، تكوّن جيش لمناصرتي أمام أي أحد يكتشف ما أفعله بك، أو أجعلك تتحداني وتسُبني إذا لمست أحد أقداسك فتقف على نفس المنابر وتخطب في الناس أن يرجموني ويدعون علي بالعذاب الأليم، ولكنك لا تعرف أن بذلك لقد دفعت إتاوتك بنجاح ووضعتني في مكان أفضل، وعرفني من لم يكن يعلم بي من باقي الحارة، "الإتاوة هي السُم لعقلٌ فارغ وقلبٌ أُمِّيّ"

نعم أنا فتوة وأمارسها من خلال مهنتي وهي الكتابة، مثلي مثل باقي أخوتي فأمجد أمين شرطة، وممدوح مأمور بالجمارك، وقنديل جزارًا، ومحمود ميكانيكي، وياسين مُعلم، ومرسي موظف حكومي، ونعيم طبيب، وباقي أخوتي الأخرين يمتهنون مهن أخرى لكن مازال الوصف الثابت لمهنتنا هو الفتوة، نعم لا يجب أن تنكر تلك الحقيقة فمازالت المهنة موجودة بيننا بنفس النمط الاعتيادي لها، أن تدفع الإتاوة مقابل خدمة مزيفة تعتقد إنها ليست من حقك، فيجب أن تعلم هذا جاري العزيز بتلك الحارة "أفة حارتنا موّت الضمير."

****

تمت بحمدالله

بقلم / محمد حياه